منهج القرآن في تهذيب الأخلاق

Qur'anic Methodology in Moral Rectification

By

Muhammad Nur Bukar
Department of Islamic Studies
Borno State University, Maiduguri

Babagana Isa
Department of Arabic and Islamic Studies
Mohammed Goni College of Legal and Islamic Studies, Maiduguri

&

Muhammad Bashir Ali
Department of Islamic Studies
Borno State University, Maiduguri

Abstract

This paper explores the Quranic approach to moral refinement and ethical development. It begins by defining the Quran linguistically and theologically, followed by an overview of its revelation, objectives, names, and attributes. The paper then delves into the meanings of moral refinement (tahdhib) and ethics (akhlaq), establishing their close relationship and linguistic roots. Finally, it examines the Quranic methodology for refining human character, highlighting how ethical behavior is deeply embedded in the Quran's teachings. The Quran consistently emphasizes good conduct across its verses, and the Prophet Muhammad (peace be upon him) is praised for his exemplary character. The paper concludes that ethical refinement is not only a fundamental goal of the Quran but also a key to personal salvation and societal well-being.

Keywords: Methodology, Qur'an, Moral

المقدمة

الحمد لله وحده الذي أنزل خير كتبه وأرسل إلى الناس أفضل رسله واختارنا بخاتم أنبيائه وشرفنا بأعظم كتابه وأكمل وأتم شرائعه قال تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [سورة المائدة: 3] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الغفور الودود ذو العرش المجيد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه وصفيه وخليله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد: فيقول الله تعالى في محكم التنزيل: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [سورة الجمعة: 2]، هذا، لقد جعل سبحانه أول ثمرات تلاوة الكتاب تزكية النفوس قبل العلم والحكمة وأثنى على رسوله الذي أرسله هداية وقدوة للأنام بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [سورة القلم: 4]. كما نهج القرآن الكريم منهج حياة البشرية في أحسن الأخلاق في جميع المعاملات وفي كل زمان ومكان سواءً كان في أجناسهم وغيرهم، ومن خلال هذا البحث يعالج الباحثون النقاط التالية:

- المبحث الأول: مفهوم القرآن الكريم لغة واصطلاحا
- المبحث الثاني: نزول القرآن الكريم وأهدافه وأسمائه وأوصافه
- المبحث الثالث: مفهوم التهذيب والأخلاق
- المبحث الرابع: منهج القرآن في تهذيب الأخلاق

المبحث الأول: مفهوم القرآن الكريم

القرآن في اللغة: لفظ القرآن مشتق من مادّة الفعل قرأ بمعنى القرء؛ أي الضم والجمع، ومنه القول: قرأت الشيء؛ فهو قرآن؛ أي ألّفت بينه، وجمعت بعضه إلى بعض، وكانت العرب تقول: "ما قرأت هذه الناقة سلى قط"، والمقصود من قولهم أنّ هذه الناقة لم تضمّ في رحمها جنيناً أو ولداً أبداً، ويقول الإمام أبو عبيدة -رحمه الله تعالى-: أُطلق اسم القرآن على كتاب الله -تعالى-؛ لأنّه يؤلّف بين السور، ويضمّ بعضها إلى بعض، (الديلمي 2006م، ص: 19).

وقد بيّن الله تعالى ذلك في كتابه فقال: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) [سورة القيامة: 17]، أي ضم بعضه إلى بعض، وقال سبحانه وتعالى في آية أخرى: (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) [سورة القيامة: 18] ، أي إذا رتلت بعض آياته في إثر بعض، حتى تأتلف وتجتمع آياته بعضها إلى بعض، وهو بذلك مماثل لمعنى الضم والتأليف، (الديلمي، ص: 19).

وفي الاصطلاح: هو كلام الله -تعالى-، المُنزل على نبيّه محمد -صلى الله عليه وسلم-المعجز بلفظه، المتعبّد بتلاوته، المفتتح بسورة الفاتحة، والمنتهي بسورة الناس، المكتوب في المصاحف، والمنقول إلينا بالتواتر، (الديلمي، ص: 20).

المبحث الثاني: نزول القرآن الكريم وأهدافه وأسماؤه وأوصافه

أنزل الله تعالى القرآن الكريم على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهداية البشر قال تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) [سورة البقرة: 185] وقال سبحانه: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) [سورة القدر: 1] واختلف في كيفية الإنزال على ثلاثة أقوال:

- أحدها: أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ثم نزل بعد ذلك منجما في عشرين سنة أو في ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين على حسب الاختلاف في مدة إقامته بمكة بعد النبوة.
- والقول الثاني: أنه نزل إلى سماء الدنيا في عشرين ليلة قدر من عشرين سنة وقيل في ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة وقيل في خمس وعشرين ليلة قدر من خمس وعشرين سنة في كل ليلة ما يقدر الله سبحانه إنزاله في كل السنة ثم ينزل بعد ذلك منجما في جميع السنة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- والقول الثالث: أنه ابتدئ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجما في أوقات مختلفة من سائر الأوقات. (الزركشي، 1957).

والقول الأول أشهر وأصح وإليه ذهب الأكثرون، أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ثم نزل بعد ذلك منجما في ثلاث وعشرين سنة ويؤيده ما أخرجه النسائي في التفسير من جهة حسان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإسناده صحيح وحسان هو ابن أبي الأشرس وثقه النسائي وغيره.

المبحث الثالث: مفهوم التهذيب والأخلاق

التهذيب كما بينه أهل اللغة: من هذب، يقال: هَذَبَه يهْذِبُه هذْباً، أي قطعه ونقاه وأخلصه وأصلحه؛ فالهاء والذال والباء كلمة تدل على تنقية الشيء مما يعيبه، يقال: شيء مهذب أي مما يعيبه.

وقيل أصله تنقية الحنظل من شحمه، ومعالجة حبه حتى تذهب مرارته ويطيب لآكله. والمهذب من الرجال: المخلص المنقى من العيوب. (الحنظل، وآخرون).

والعلاقة بين التهذيب والأخلاق يبدوا أنها وطيدة حتى قالوا: رجل مهذب أي: مطهر الأخلاق، (ابن منظور، وآخرون)؛ وذلك لأن الأخلاق منها المحمود ومنها المذموم ومنها الحسن ومنها القبيح، ولهذا تحتاج إلى التهذيب. وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار"، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة " (صحيح البخاري/224)، فقوله: "حتى إذا نقوا وهذبوا " أي أكملوا التقاصّ ونقوا وخلصوا من الآثام بمقاصصة بعضها ببعض، وهو متعلق بتهذيب الأخلاق كذلك، لأنهم ما دخلوا الجنة حتى هذبت أخلاقهم كما قال تعالى: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) **[سورة الأعراف: 47]** مما سبق في هذه الجولة السريعة في معاني التهذيب يتضح أن التهذيب في اللغة يدور على هذه المعاني: التنقية، والإخلاص، والإصلاح، والقطع. وبناء على ما تقدم يمكن أن يُعرف التهذيب بالآتي: إخلاص الشيء وإصلاحه، بتنقيته وقطع الفاسد عن الصالح منه وجعله نقيا صالحاً.

تعريف الأخلاق:

الأخلاق لغة: من مادة (خلق) والخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء. والآخر ملاسة الشيء. ومن الأخير صخرة خلقاء أي ملساء، ومنه أيضاً أخلق الشيء وخَلِقَ إذا بليَ؛ وذلك أنه إذا أخلق املاسّ.

والمعنى الأول وهو تقدير الشيء هو المراد، ومنه قولهم: خلقت الأديم للسقاء إذا قدرته (فارس 1979). ومنه الخُلق بضم اللام وسكونها وهو: السجية، والطبع، والمروءة، والدين، وسمي به لأن صاحبه قد قدر عليه، والجمع أخلاق ولا يكسّر على غير ذلك (الفارابي، 1987)، وفي التنزيل قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [سورة القلم: 4]. قال ابن عباس رضي الله عنهما على خلق: على دين عظيم من الأديان ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه. وقيل: أي إنك على طبع كريم (القرطبي، 2003). وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه فقالت: كان خلقه القرآن (المسند الصحيح/746).

والخلق اصطلاحاً: عرفه ابن مسكويه رحمه الله بأنه: حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية (ابن مسكويه، 2002). وقيل: هو عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير فكر ولا روية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا (الغزالي).

المبحث الرابع: منهج القرآن في تهذيب الأخلاق

التعريف المنهج القرآني بهذا المركب لابد من تعريف مفرداته وتحليلها أولاً، ومن ثم الخروج بتعريف ملائم باعتباره مركبا إضافيا بعون الله تعالى، فأقول وبالله التوفيق.

المنهج لغة: أصل هذه الكلمة من نهج، والنهج الطريق الواضح كالمنهج والمنهاج، وطريق نهج: بيّن واضح، وأنهج الطريق وضح واستبان (ابن منظور، وآخرون). وفي التنزيل قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) [سورة المائدة: 48] وقيل: المستمر. ثم يستعمل في كل شيء كان بيّنًا واضحا سهلا (الطبري، 2001). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "شرعة ومنهاجا " سبيلا وسنة (صحيح البخاري، 755/2). قال ابن القيم رحمه الله: وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، فالسبيل: الطريق وهي المنهاج، والسنة: الشرعة، وهي تفاصيل الطريق وحزوناته (ابن أثير، 1979)، وكيفية المسير فيه، وأوقات المسير فيه (ابن القيم، 113/2). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والمنهاج: هو الطريق الذي سُلِك فيه والغاية المقصودة وهي حقيقة الدين (ابن تمية، 2004).

وعلى ما ذكرت فيما مضى من أقوال أهل اللغة والمفسرين في بيان كلمة المنهج يتبين أن المنهج في اللغة هو: الطريق الواضح البين الموصل إلى المقصود.

المنهج القرآني:

الطريق الواضح الذي سلكه القرآن الكريم في ميدان من الميادين، من خلال العقائد الصحيحة، والتشريعات المحكمة، بالإيجاب والتحريم، أو العقاب والثواب، أو الأخبار والقصص، وبيان النافع والضار، والخير والشر.

منهج القرآن في تهذيب الأخلاق:

لقد عُني الإسلام بالأخلاق منذ بزوغ فجره وإشراقة شمسه، فالقرآن في عهديه المكي والمدني على السواء في اعتناء كامل بجانب الأخلاق، مما جعلها تتبوأ مكانة رفيعة بين تعاليمه وتشريعاته، حتى إن المتأمل في القرآن الكريم يستطيع وصفه بأنه كتاب خلق عظيم، وفيما يلي أجمل ما ظهر لي من خلال التأمل في النصوص من بيان مكانة الأخلاق في الإسلام وهي:

- أولاً: إن المتتبع للقرآن الكريم في آياته وموضوعاته يجد أن الأخلاق تشغل حيزاً كبيراً منه، كما يجد إشارات الشارع الحكيم وتنبيهاته إلى سجايا الأخلاق في كل أوامره ونواهيه.
- ثانياً: إن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانت لتقويم الأخلاق وإتمام مكارمها، يقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (الشيباني، 2001)، والقرآن قد نوّه بذلك أيضاً في غير ما آية، نحو قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [سورة الجمعة: 2]
- ثالثاً: مدح الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم الذي اختاره واصطفاه بقوله سبحانه: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [سورة القلم: 4]، ولا يمدح الله نبيه صلى الله عليه وسلم بشيء إلا وله مكانة عظيمة عنده تعالى.
- رابعاً: يتوقف كمال إيمان المؤمن على حسن خلقه، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا" (سنن أبي داود، 4682).
- خامسًا: أصحاب الخلق الحسن خيار الناس في الإسلام، يدل لذلك حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: "إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا"(صحيح البخاري، 3559).
- سادساً: ومما يبين مكانة الأخلاق دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ربه أن يحسن خلقه – وهو صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً – كقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "اللهم اهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت" (صحيح مسلم، 760).
- سابعًا: الخلق الحسن مجلبة لمحبة الله تعالى، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: "أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا" (الطبراني، 147/2)، وفي حديث جابر رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: "إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا" (مسند إمام أحمد، 1788).
- ثامناً: حسن الخلق كالعبادة من صيام وقيام ليل، فعن عائشة رضي الله عنها قال صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم" (سنن أبي داود، 4798).
- تاسعًا: أثقل ما يجد المؤمن في ميزانه يوم القيامة حسن الخلق، كما جاء الخبر بذلك فقوله صلى الله عليه وسلم: "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق" (سنن الترمذي، 2002)م.

- عاشرًا: إن حسن الخلق وتقوى الله أكثر ما يدخل الناس الجنة، ففيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: "تقوى الله وحسن الخلق" (سنن الترمذي، 2004م). فجعل حسن الخلق مساوٍ للتقوى، وأكثر ما يدخل الناس الجنة، بل وقد تبوأ أصحاب الأخلاق معالي الجنة ومعالمها المرموقة، يقول صلى الله عليه وسلم: "أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا"، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وفي أعلى الجنة لمن حسن خلقه (سنن أبي داود، 4800).

الخاتمة

يتبيّن مما سبق أن القرآن الكريم قد أولى عناية عظيمة بتهذيب الأخلاق، فجعلها من أسمى مقاصده، وربطها بكمال الإيمان، ورفعة الإنسان في الدنيا والآخرة. ومن خلال هذا البحث، ظهرت عدة نتائج مهمة، يمكن إجمالها فيما يلي:

- أن الأخلاق تشغل حيزاً كبيراً في منهج القرآن الكريم في تهذيب الأخلاق، حيث لا تكاد تخلو سورة أو آية من توجيه خلقي مباشر أو غير مباشر، مما يدل على مركزية الأخلاق في الرسالة القرآنية.
- أن القرآن كله أخلاق فاضلة، ويتضح ذلك جليًا من وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ بأنه كان خلقه القرآن، مما يدل على أن تطبيق تعاليم القرآن عمليًا هو في جوهره تمثُّلٌ للأخلاق الرفيعة.
- أن الهدف الأساسي لإنزال القرآن هو الهداية، وهذه الهداية لا تتم ولا تكتمل إلا بمكارم الأخلاق، فهي السبيل الحقيقي لتزكية النفوس وإصلاح المجتمعات، وبدونها لا تتحقق الغاية من الوحي.
- أن الإخلاص هو أعم معاني التوحيد، وهو من الأخلاق الباطنة العظيمة، التي من شأنها تنزيه القلوب من أدران الرياء، وقد دعا الله عز وجل إلى التمسك به لما له من أثر عميق في تهذيب السلوك وإصلاح النية.

وبناءً على هذه النتائج، يتضح أن تهذيب الأخلاق وفق المنهج القرآني ليس أمراً جانبياً أو فرعياً، بل هو محور أساسي في بناء الإنسان وإقامة الدين. فبتهذيب الأخلاق يُقبل الناس على دين الله، وتُبنى الأمم على أسس من القيم والمبادئ السامية، ويُرجى رضا الله وجنته.